المبحث الثالث

آثار المغاربة
في نشر الثقافة العربية الإسلامية بنيجيريا

هذا الموضوع توأم الذي قبله ، إذ لا توجد الدعوة الإسلامية بدون وجود الثقافة العربية ، ولا يكاد المسلم يعتنق الإسلام حتى يتبادر إلى معرفة مبادئه الضرورية التي يؤدي بها صلواته اليومية من قراءة الفاتحة وسور قصار من القرآن وما يليها من تشهد وتكبير وتهليل باللغة العربية التي لا تقبل لها بديلا في اللغات الأخرى ، وكانت كلمة العَالِم في بداية الأمر صفة تطلق على من يقرأ ويكتب إلى جانب ما يحفظ من آيات القرآن وأحاديث النبي، هكذا كان الصحابة الذين وصفهم النبي بقوله « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم »[1].

وكما وصفهم بقوله « لا تسبوا أحدًا من أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أُحدٍ ذهبًا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه »[2].

وكان هؤلاء الصحابة متفاوتين في درجاتهم العلمية ، منهم من يحفظ القرآن كله وهم قليل كزيد بن ثابت وأبي بن كعب

(1) لم أقف على تخريجه .

(2) رواه الأربعة .

وعبد الله بن مسعود ومعاذ بن جبل وأبو موسى الأشعري ، ومنهم من يحفظ نصفه ومنهم من يحفظ بضع آيات وسور قصار ، ومنهم من يروي آلاف الحديث عن النبي ﷺ وهم قليل كأبي هريرة وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وعبد الله ابن عمرو بن العاص وجابر بن عبد الله وسيدتنا عائشة رضوان الله عليهم أجمعين ، ومنهم من يروي بضع مئات وبضع عشرات ، ومع ذلك فهم هداة الأنام ومصابيح الظلام والسابقون الذين لا يدركهم اللاحقون رضوان الله عليهم . ثم جاء بعدهم التابعون على اختلاف مستوياتهم كذلك ، ثم جاء الفقهاء المجتهدون ، ثم جاء من بعدهم النحاة والأدباء والبلاغيون واللغويون وهلم جرا ، ومن ثَمَّ صارت كلمة العالم صفة لمن أخذ من كل فن بنصيب .

فلا جرم إذًا إن لم يلمع في سماء غرب أفريقيا نجوم وأعلام من الأدباء والكتاب في القرون الأولى من ظهور الإسلام فيها إلى أن قامت الدول والحكومات ، واستوت الدعوة الإسلامية على ساقها ، ومن ثَمَّ بدأ يظهر الأعلام في كل فن من فنون العلم في الإسلام ، ويقول شكيب أرسلان :

أما انتشار العلوم والآداب في المغرب فكان بطيئًا في البداية بسبب مقاومة البربر لها ولكن بعد أن شيدت المدارس والمساجد في القيروان وبجاية وتلمسان ظهر فيها نوابغ[1] .

---

(1) حاضر العالم الإسلامي ص ٣٦٣ .

أهم مراكز الثقافة العربية المغربية التي تأثرت بها نيجيريا

هي مدرسة القيروان التي أسسها عقبة بن نافع ، وجمع فيها الصنهاجيين لتعليم الإسلام حوالي ٤٠هـ ، ثم جاء بعدها مدرسة فاس المشهورة بجامعها ومنها تخرج الوناغرة الملثمين الذين أسسوا جامعة سُنكري بتمبكتو .

ومما يحكى من ذلك ما جاء في كتاب أفريقيا من السنغال إلى نهر جوبا للعميد محمد عبد الفتاح إبراهيم[1] .

إن منسا موسى سلطان مالي لما حج عام ٧٣٤هـ - ١٣٤٤م أحضر معه من مكة عالمًا عربيا ليتولى التدريس في جامعة سنكري في مدينة تمبكتو ، ولكن الرجل وجد بها أعلامًا أكثر دراية بالعلم منه ، فتوجه إلى مدينة فاس وبقي بها ثلاث سنوات يتعمق في العلوم قبل أن يستطيع العودة إلى تمبكتو ليبدأ التدريس فيها[1]، كما يحكى أن مدينة جنى التي أسلم ملكها كُنبرو عام ٤٠٠هـ وجمع يوم إسلامه أربعة آلاف ومائتي عالم في مملكته وحدها ليس يخلو هؤلاء العلماء من المغاربة الذين نزلوا المملكة لنشر الثقافة الإسلامية فيها ، والجدير بالذكر أن

(1) أفريقيا من السنغال إلى نهر جوبا ص ١٠٥ .

منسا موسى السالف الذكر كان حفيداً لماري جاطه «سنديانا» الذي كان أول ملوك مالي المسلمين وكان يحب العلماء وكان بينه وبين حفيده حوالي مائة عام .

ابن بطوطة

زار ابن بطوطة بلاد غرب أفريقيا بعد أربعين سنة من مرور منسا موسى على مصر في طريقه إلى الحج وبعد زوال المرابطين بنحو قرنين حسبما حققه المؤرخون ، وذكر ما أدركه من مظاهر الإسلام في مالي من أفعالهم الحسنة ومواظبتهم على الصلاة وملازمتهم للجماعات وضربهم أولادهم عليها ، وإذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الإنسان إلى المسجد لم يجد أين يصلي لكثرة الزحام ، وذكر عنايتهم بحفظ القرآن وهم يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه ولا تفك عنهم حتى يحفظوه ، ولم ينس ابن بطوطة أن يذكر علماء مالي في عهد منسا سليمان الذي جاء بعد منسا موسى وكان أكثرهم من المغاربة والبرابرة . منهم محمد بن الفقيه الجزولي ، وسعيد بن علي الجزولي شيخ المغاربة في مالي ، والحاج موسى الونغري سفير سلطان مالي إلى أبي الحسن ملك المغرب ، والعلامة أبو القاسم ابن رضوان والمقري عبد الواحد والقاضي عبد الرحمن .

مدرسة تلمسان التي أنجبت مئات من الأعلام ، ثم مدرسة تونس (الزيتونة) وهذه المدارس الثلاث ظلت ردحًا من الزمان تنافس الجامع الأزهر في مصر ، وكلها كانت تمد غرب أفريقيا

بالعلم حتى نبغ فيها العلماء ، وهذا كله من آثار المغاربة رغم كون البلاد اليوم قد توزعت في حدود مصطنعة فالمغرب هي المغرب ، وإن فات ذكرهم في سجل التاريخ فيكفي أن الإسلام لا يزال هناك ، وأن الدول والحكومات الإسلامية ظلت تتوالى ، وجاء بعد منسا موسى الذي عاش ١٢٠ عاما ملوك ماليٍ كثيرون إلى أن ضعفت وقامت بعدها ملوك سنغاي حتى أتى سنِ عَلِي وبعده أبو بكر التوري الشهير بأسكيا الذي جاء في عصره الإمام المغيلي إلى نيجيريا حوالي ١٤٦٠م .

والفترة التي بين منسا موسى وأسكيا محمد نحو مائة عام ونيف لم يسجل التاريخ أسماء الأعلام الذين خدموا الدعوة والثقافة في هذا العهد ، ولكننا عثرنا على أسماء الذين عاصروا المغيلي التلمساني وأخذوا منه حتى نبغوا ، جاء ذكرهم في تاريخ السودان للسعدي وفي تطريز الديباج للتمبكتي ، فليراجع .

الإمام المغيلي التلمساني

الإمام المغيلي كما وصفه أحمد بابا التمبكتي في نيل الابتهاج قال : إنه خاتمة المحققين وأحد أذكياء الدنيا الذين أُوتوا بسطة في العلم والتقدم في الفهم ، وهو منسوب إلى قبيلة مغيلة إحدى قبائل البربر في المغرب .

أخذ المغيلي علومه عن أعلام كثيرين من علماء المغرب منهم الشيخ عبد الرحمن الثعالبي علامة المغرب ، وعاصر المغيلي الإمام محمد بن يوسف السنوسي صاحب كتب العقائد السنوسية

فجرى بينهما مكاتبات ، لقي الإمام السيوطي وجرى بينهما مناظرة في تجويز علم المنطق من جانب المغيلي وتحريمه من جانب السيوطي ، دخل بلاد السودان وجال فيها مدة في مدينة كاشنة وكانو وتكدّا وأكدس وسنغاي ومالي ، ومن أشهر الذين أخذوا منه من أعلام السودان العاقب بن عبد الله الأنصمني الأكدسي، القاضي محمد بن أحمد التادلي الملقب بايدَ أحمد ، ومحمد بن عبد الجبار الفجيجي من مشاهير علماء المغرب ، هذا وقد تأثر بالمغيلي عدد من العلماء الذين اجتمعوا به وأخذوا منه ، كما تأثر به الذين أخذوا عن تلاميذه واحتفظوا برسائله وفتاويه ، ومن أولئك : الشيخ البكري البرناوي ، والشيخ سليمان الوالي التاركي ، إلى أن جاء أكبر مشائخ ابن فودي هو الشيخ جبريل ابن عمر الذي كان تلميذًا لأحد تلاميذ المغيلي .

ولذلك تأثر ابن فودي بفتاوى المغيلي ورسائله ، وهو الذي سجل علينا في مؤلفاته تلك الفتاوى والرسائل منها : رسالة المغيلي إلى سلطان أكدس ، ووصية المغيلي في أمور السلطنة لسلطان كانو محمد رُنفَا ، وأجوبة الفقير على أسئلة الأمير كتبها المغيلي لمحمد أسكيا الكبير سلطان سنغاي .

كل ذلك من آثار المغيلي الذي هو أحد علماء المغرب الذين لهم آثار في بلاد غرب أفريقيا وفي نيجيريا بالقرن العاشر الهجري .

هذا قليل مما نعلم وكيف بالكثير الذي لا نعلم فحدِّث عن البحر ولا حرج .